أبعاد التجربة الشعرية
فى ميمية النابغة الجعدى

د. محمد عبدالحكيم محمد الفقى

مدرس الأدب والنقد فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين بالديدامون شرقية

أبعاد التجربة الشعرية
فى ميمية النابغة الجعدى

بقلم
د/ محمد عبدالحكيم محمد الفقى
مدرس الأدب والنقد
فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالديدامون شرقية

تقدمة

لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد...

فإن الإسلام الحنيف منذ أن أشرقت شمسه على العالم ، وكثر أتباعه كانت تعاليم هذا الدين توجه هؤلاء الأتباع إلى أنماط جديدة من الشعر والسلوك غير التى ألفوها فى حياتهم الأولى ، إذ إن ما عاشوا عليه فى الجاهلية لا يصلح كله للحياة الجديدة فى الإسلام ، فلا بد من نبذ ما لا يتناسب مع مبادئ الإسلام وقيمه.

ومن هنا حرص هذا الدين الحنيف على تنقية الكلمة الأدبية من الأدران ، ووسمها بالعفة والطهارة لما لها من تأثير مباشر على نفوس العامة والخاصة.

فقد لعب الأدب العربى فى ظلال الإسلام – والذى كان يمثل أحد أبرز وسائل الإعلام والتعبئة الثورية – دوره المؤثر فى إثارة العزائم، واستنهاض الهمم [1].

---

(١) بين القادسية الأولى مهدى حسين البصرى صـ ٧٣ الموسوعة الصغيرة العدد ٨١ منشورات دار الجاحظ بغداد سنة ١٩٨٠م.

وكان الإسلام هو المحرك والمنبه للكاتب وللشاعر والأديب، منه يمتح تجربته التى جاءت فى معظمها متوافقة مع روح الإسلام ورسالته السمحة.

وهذا ما سنجده فى ميمية النابغة الجعدى – إن شاء الله – من خلال الوقوف على النص الأدبى، ومحاولة الإبحار فى عالمه، وإبراز أدوات التشكيل والتعبير فيه، مستخلصا من كل ذلك النتائج والدلالات والأجواء التى يسبح النص فى رحابها.

الله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يوفقنا إلى خدمة العلم والدين، ولغة القرآن الكريم، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

د. محمد عبد الحكيم محمد الفقى

الشاعر حياة وفناً :

هو قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، نابغة بنى جعدة ويكنى بأبى ليلى.

كان شاعراً مفلقا طويل البقاء فى الجاهليه والإسلام،وسمى بالنابغة لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر، ثم نبغ فقاله، وهو ممن هجر الأوثان ونهى عن الخمر قبل الإسلام وكان أكبر من النابغة الذبيانى، فقد نادم المنذر أبا النعمان بن المنذر[1] وفى ذلك يقول:

فمن يك سائلاً عنى فإنى ∴ من الفتيان أيام الخنان
أتت مائة لعام ولدت فيه ∴ وعشر بعد ذاك وحجتان
وقد أبقت خطوب الدهر منى ∴ كما تبقى من السيف اليمانى
تفلل وهو مأثور جراز ∴ إذا اجتمعت بقائمة اليدان[2]

فهو من الفتيان المعمرين الذين عاصروا عام الخنان أيام المنذر بن ماء السماء، وهو العام الذى أصيبت فيه الإبل بالزكام

---

(١) معجم الشعراء للمرزبانى ص١٩٥ ت عبدالستار أحمد فراج ط الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة٢٠٠٣م.
ـ الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى جـ٦ صـ٨٨ ط دار الكتاب العربى بيروت.

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى جـ١ صـ ١٢٣ – ١٢٤ ط شرح محمود محمد شاكر الهيئة العامة لقصور الثقافة. الخنان : زكام الإبل ، أيام الخنان : كانت على عهد المنذر بن ماء السماء وماتت منه الإبل. السيف اليمانى : المنسوب إلى اليمن وهو من أجود السيوف. تفلل : تثلم حده من طول القراع. مأثور : باقى أثره ، جراز ": ماضى.

فماتت كلها ، فهو معمر مثله فى ذلك كالسيف اليمانى، فعلى الرغم من تقادم عهده بالضراب ، إلا أن الأيام أبقت له مضاء حتى إذا أخذته كف الضارب مضى فى ضربته.

وعلى الرغم "من أنه كان أشعر أهل زمانه"(١) إلا أنه كان فى كثير من الأحيان مُغَلَّبا (أى مغلوب) وقد عبر عن ذلك الفرزدق بقوله : مثله مثل صاحب الخلقان : ترى عنده ثوب عصب وثوب خز وإلي جنبه سمل كساء(٢).

فقد غُلّبت عليه ليلى الأخيلية ، وأوس بن مغراء القريعى ، ويؤكد ذلك ما رواه بلسانه حيث يقول : إنى وأوس بن مغراء لنبتدر بيتا ما قلناه بعد لو قاله أحدنا لقد غلب على صاحبه ، قال ابن سلام : وكانا يتهاجيان ، ولم يكن أوس إلى النابغة فى قريحة الشعر ، فقد كان النابغة فوقه ، فقال أوس بن مغراء :

فلست بعاف عن شتيمة عامر ∴ ولا حابس عما أقول وعيدها
ترى اللؤم ما عاشوا جديداً عليهم ∴ وأبقى ثياب اللابسين جديدها
لعمرك ما تبلى سرابيل عامر ∴ من اللؤم ما دامت عليها جلودها(٣)

فقال النابغة هذا البيت الذى كنا نبتدر، وغلب الناس أوسا عليه. فهو فى شعره كما أقره العلماء : "خمارُ بواف ، ومطرف بآلاف يريدون أن فى شعره تفاوتاً ، فبعضه جدّ مبرزٍ ، وبعضه ردىءٌ ساقطٌ"(٤).

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى جـ٣ صـ١٧٧ ت محمد نعيم ومأمون صاغرجى الرسالة بيروت ط الثامنة.
(٢) العصب من أجود البرود اليمنية ، الخز : الحرير ، السمل : الخلق من الثياب.
(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام جـ١ ص ١٢٦.
(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧/١ ت أحمد شاكر ط دار المعارف.

ومما سبق إليه كما يقول يونس أنه كان أوصف الناس للفرس إذ يقول :

كأن مقط شرا سيفه ∴ إلى طرف القنب فالمنقب
لطمن بترس شديد الصقا ∴ ل من خشب الجوز لم يثقب[1]

فهو يصف رأس ضلع الفرس بالترس الشديد الصفاف، وكأنه صنع من خشب الجوز الذى لم يثقب.

وهو من الشعراء الذين أشاد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بشعرهم ودعا لهم ، وعندما سمعه ينشد :

ولا خير فى حلم إذا لم يكن له ∴ بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له ∴ حلم إذا ما أورد الأمر أصدرا

دعا له بقوله : لا يفضض الله فاك" فبقى عمره لم ينفض له سن[2].وتلك حظوة كريمة نالها الشاعر سواء أكان ذلك فى شرف الدعاء ،أم فى شرف الاستحسان ، فأصبح " من أحسن الناس نفرا ، وكان إذا سقطت له سن نبتت أخرى"[3] .

وإلى جانب إجادته فى الوصف أجاد فى أغراض أخرى، نذكر منها تلك التجربة الوجدانية الدافقة، التى دارت بينه وبين زوجته حينما خرج غازيا فى سبيل الله امتثالا لكتاب الله الذى حث على الجهاد، وبين الثواب الجزيل الذى يناله المجاهدون فى سبيله سبحانه من حسن الرفقة مع النبيين والصديقين ، إذ يقول :

باتت تذكرنى بالله قاعدة ∴ والدمع ينهال من شأنيهما سبلا
يا ابنة عمى كتاب الله أخرجنى ∴ كرها وهل أمنعن الله ما فعلا
فإن رجعت فرب الناس يرجعنى ∴ وإن لحقت بربى فابتغى بدلا

---

(١) السابق ٢٩١/١ الشراسيف : جمع شرسوف وهو رأس الضلع مما يلى البطن. القنب : جراب قضيب الدابة. المنقب : السرة.
(٢) معجم الشعراء للمرزبانى صـ١٩٥ .
(٣) الإصابة لابن حجر العسقلانى ٩٠/٦.

ثم يذكر ما يشترط فى المجاهد بأن يكون بعيداً على العلل والعاهات التى تؤخر به عن هذا الميدان :

ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرنى ∴ أو ضارعاً من ضنى لم يستطع حولا[1]

إنها تناشده البقاء إلى جانبها، وتتوسل إليه بدموعها المنهمرة، ولكن العقيدة تدفع الفارس للجهاد في سبيل الله، وهل هناك خيار للإنسان المسلم صحيح البدن في هذه المسألة إلا أن ينضم إلى المجاهدين؟ فهو ليس أعرج أو أعمى أو مريضاً ليعتذر، وإن كان الشاعر الجاهلي يبغي الخلود من خلال أعماله المجيدة من فروسية وجود أو عناية بالضيوف والمحتاجين أو سعي لرفعة شأن قومه، فإن الشاعر المسلم هنا يضع نصب عينيه هدفاً أيضاً، إنه يبتغي الدار الآخرة بدلاً من الدنيا.

وعندما ثقلت على النابغة الغربة والبعد عن البادية التى نشأ فيها، دخل على سيدنا عثمان بن عفان – ﷺ- فقال استودعك الله يا أمير المؤمنين، واقرأ عليك السلام قال : لمه؟ قال أنكرت نفسى، فأردت أن أخرج إلى إبلى فأشرب من ألبانها، وأشم من شيح البادية، وذكر بلده، فقال: يا أباليلى:أما علمت أن التعرب بعد الهجرة لا يصلح؟[2].

قال : لا والله ما علمت، وما كنت لأخرج حتى أستأذنك، فأذن له، وضرب له أجلاً، فخرج من عنده فدخل على الحسن بن على – ﷺ- فودعه، فقال له الحسن : أنشدنا من بعض شعرك فأنشده :

الحمدُ للهِ لا شَريكَ لَهُ ∴ مَن لَمْ يَقُلها فنفسَهُ ظَلَمَا

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٩٣/١.

(٢) التعرب : أن يرتد أعرابيا ويعود إلى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجراً، وكان من رجع بعد هجرة إلى موضعة من غير عذر يعدونه كالمرتد. وروى الحديث "ثلاث من الكبائر منها : التعرب بعد الهجر".

فقال له يا أبى ليلى، ما كنا نروى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبى الصلت؟

قال : يا ابن رسول الله، والله إنى لأول الناس قالها، وإن السروق من سرق أمية شعره[1].

وكان النابغة علوى الرأى غاضبا لمقتل عثمان بن عفان والظلم الذى وقع عليه مما عرضه للإيذاء من بنى أمية، فقد أخذ مروان بن الحكم ابنه وإبله بالمدينة، فلما علم ذلك خرج على الفور لينقذ ولده وإبله فهو رجل حرب وقتال، فذهب إلى معاوية بن أبى سفيان وعنده مروان بن الحكم وعبد الله بن عامر فأنشده :

فمن راكب يأتى ابن هند بحاجتى ∴ ومروان والأبناء تنمى وتجلب
ويخبر عنى ما أقول ابن عامر ∴ فنعم الفتى يأوى إليه المعصب
فإن تأخذوا مالى وأهلى بظنة ∴ فإنى لحراب الرجال محرب
صبور على ما يكره المرء كله ∴ سوى الظلم إنى إن ظلمت سأغضب
أصيب ابن عفان الإمام فلم يكن ∴ لذى حسب بعد ابن عفان مغضب[2]

فالشاعر يتوسل إلى معاوية بعبد الله بن عامر بن كريز وهو من الذين باركهم رسول الله - ﷺ- وحنكه وهو ابن ثلاث سنين ، فلم يزل عبد الله شريفا ، وكان سخيا كريم المال والولد ، وهو ابن خال عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، وقال عنه على بن أبى طالب رضى الله عنه : هو سيد فتيان قريش غير مدافع ، وهو الذى فتح عامة فارس وخراسان ، فأخباره تدل على شرفه وسؤدده[3].

فإذا لم تنفع شفاعة عبد الله بن عامر فالرجل سيكشف عن شخصيته، وهو لا يرضى بالذل والضيم، وهو المعروف عنه

(١) طبقات فحول الشعراء١/١٢٨،١٢٧- الإصابة ١/١٢٧,١السروق : الخبيث السرقة، مبالغة فى السارق.
(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١/١٣٠.
(٣) السابق١/١٣٠.

الشجاعة والبسالة، وسلبه أموال أعدائه فى الحرب والغارة ، فهو إن صبر على ما يكرهه المرء فإنه لا يصبر على الظلم ، وسيخوض معركته بشرف وكرامة فلا يهاب حربا ، ولا يرضى ضيما.

ثم يوظف حادثة مقتل عثمان بن عفان توظيفاً رائعاً يبرز من خلالها الحالة التى كان عليها الحكم فى عهد معاوية من أخذ الناس بالظن وقهرهم ، فبعد الذى أصاب عثمان على شرفه ومنزلته من ظلم الناس له وعدوانهم عليه ، لم يبق لذوى الشرف والحسب نجاة من نزول الظلم بهم ، ولو تركوا الحمية لأحسابهم، ففى عثمان أسوة للمؤتسى.

بعد هذا الموقف الحازم من النابغة "التفت معاوية إلى مروان فقال: ما ترى؟قال : أرى أن لا ترد عليه شيئا. قال : ما أهون عليك أن ينجحر هذا فى غار ، ثم يقطع عرضى على ، ثم تأخذه العرب فترويه، أما والله وإن كنت لمن يرويه ، أردد عليه كل شئ أخذته منه"(١).

وهنا تظهر كياسة معاوية وكلمته المشهورة "لو كان بينى وبين الناس شعرة ما قطعتها ...".

أما عن وفاته :

فذكر: صاحب معجم الشعراء: " كان – أى النابغة الجعدى– أكبر من النابغة الذبيانى ، وبقى بعده بقاء طويلا، وهو أحد المعمرين يقال : إنه عاش من العمر مائتى سنة ، وقيل أقل من ذلك، وكف بصره بعد أن أسلم وحسن إسلامه، وبلغ إلى فتنة ابن الزبير ، ومات بأصفهان"(٣).هذا عن التعريف بالشاعر أما الحديث عن أبعاد التجربية الشعرية فى ميميته فهذا ما ستفصح عنه الصفحات التالية .

---

(١) طبقات فحول الشعراء١/١٣٠.

(٣) معجم الشعراء للمرزبانى صـ١٩٥.سير أعلام النبلاء ١٧٧/٣.الأعلام للزركلى ٢٠٧/٥ ط دار العلم للملايين بيروت ط سادسة ١٩٨٤.

منبع التجربة

كل تجربة شعرية لها ظروفها ، ومنابعها التى تتدفق منها مشاعر صاحبها ، وطاقاته الكامنة ، ثم تحفر طريقها بعد ذلك ، وتعمقه ، ويبقى المنبع هو نقطة البداية [1]، وهذه التجربة كانت جوابا لسؤال قاله الحسن بن على -رضى الله عنهما- للنابغة الجعدى عندما دخل عليه ليودعه بعد أن استأذن الخليفة عثمان بن عفان -رضى الله عنه- فى الذهاب إلى بلده فى البادية ، فقال الحسن للنابغة : يا أبا ليلى أنشدنا من بعض شعرك فأنشده هذه القصيدة [2] سنتناولها إن شاء الله بالشرح والتحليل :

الحمدُ للهِ لا شريكَ لهُ ∴ مَنْ لم يَقُلْها فنفسُهُ ظَلَمَا
المولجِ الليلَ فى النهارِ وفى الـ ∴ ليلِ نهاراً يُفَرِّجُ الظَّلَمَا
الخافضِ الرافعِ السماءَ علَى الـ ∴ أرضِ ولم يَبنِ تحتَها دِعَمَا[3]
الخالقِ البارئِ المصوِّرِ فى الـ ∴ أرحامِ ماءً حتى يصيرَ دَمَا
مِن نطفةٍ قدَّهَا مقدِّرُها ∴ يخلُقُ منها الأبشارَ والنَّسَما[4]
ثُم عظاماً أقامها عَصَبٌ ∴ ثُمَّتَ لحماً كساهُ فالتأمَا
ثُم كَسَا الريشَ والعقائقَ أبـ ∴ ـشاراً وجِلْداً تخالُهُ أدَما[5]
والصوتَ واللونَ والمعايشَ والـ ∴ أخلاقَ شَتَّى وفرَّقَ الكلِمَا
ثُمَّتَ لا بُدَّ أن سيجمَعُكم ∴ واللهِ جهراً شهادةً قَسَما
فائتَمِروا الآنَ ما بدا لكُمُ ∴ واعتصِموا إن وَجَدتمُ عصِما[6]

---

(١)من القيم الإسلامية فى الأدب العربى فى العصرين الأموى والعباسى د/ صابر عبد الدايم صـ٤٤ ط جامعة الزقازيق سنة ١٩٨٤م .

(٢) ديوان النابغة الجعدى صـ١٠٢ جمع وتحقيق د. واضح الصمد دار صادر بيروت ط أولى سنة ١٩٩٨م - الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٩٤/١.

(٣) الدعم بكسر الدال وفتح العين : جمع دعمة وهى الخشب المنصوبة للتعريش ، أو الأساس والقاعدة.

(٤) الأبشار : جمع بشرة وهى الجلد ، قدها : شقها ، النسم : الروح.

(٥) العقائق : جمع عقيقة وهى الشعر الذى على جلدة رأس المولود ، والأدم : الجلد المدبوغة.

(٦) عصم : جمع عصمة ، وهى ما يحمى ويمنع.

فـــي هـــذه الأرض والســـماء ولا ∴ عصـــمة منـــه إلا لمـــن رحمـــا
يـــا أيهـــا النـــاس هـــل تـــرون إلى ∴ فـــارس بـــادت وخـــدها رغمـــا[1]
أمســـوا عبيـــداً يرعـــون شـــاءكم ∴ كأنمـــا كـــان ملكهـــم حلمـــا
أو ســـبأ الحاضـــرين مـــأرب إذ ∴ يبنـــون مـــن دون ســـيله العرمـــا[2]
فمزقـــوا فـــي البـــلاد واعترفـــوا الـــ ∴ ـــهون وذاقـــوا البأســـاء والعـــدما
وبـــدلوا الســـدر والأراك بـــه الـــ ∴ ـــخمط وأضـــحى البنيـــان منهـــدما[3]
يـــا مالـــك الأرض والســـماء ومـــن ∴ يفـــرق مـــن الله لايخـــف أثمـــا[4]
إنـــي امـــرؤ ظلمـــت نفســـي وإلا ∴ تعـــف عنـــي أغـــلا دمـــا كثمـــا[5]
أطرح بالكـافرين فـي الـدرك الـ ∴ أســفل يـــارب أصـــطلى الصـــرما[6]
يرفـــع بالقـــار والحديـــد مـــن الـــ ∴ ـــجوز طـــوالا جـــذوعها عممـــا[7]
نـــودى قـــم واركـــبن بأهلـــك إنـــ ∴ ـــالله مـــوف للنـــاس مازعمـــا[8]

(١) بادت : انتهت ، خدها رغما : أذلت وأخضعت.
(٢) العرم : الأحباس والسدود فى أوساط الأودية تمسك الماء.
(٣) السدر : الأراك ، والخمط : نبات مر.
(٤) يفرق :يقال أفرق من مرضه :أقام أوبرىء، وفرق كفرح :فـزع ،المراد اللجوء إلى الله- الإثم :الذنب .
(٥) كثم كفرح:غليظ، والأكثم :الواسع البطن ، وكثم القربة أى ملأها .
(٦) أطرح :طرحه وأطرحه : رماه وأبعده .- الصرما :القطع البائن .
(٧) القار :شىء أسود يطلى به السفن والإبل أو هو الزفـت.الجـوز: وسط الشىء ومعظمه ، عمما :العمم هو مالجتمع وكثر .
(٨) زعما : الزعم :القول الحق ، والزعيم : الكفيل.

أبعاد التجربة

بعد القراءة المتأنية للنص السابق تبين أن التجربة فيه تأخذ أبعاداً متعددة :

أولاً : البعد الفكرى ، ثانياً : البعد الجمالى ، ثالثاً : المعجم الإسلامى.

أولاً : البعد الفكرى

بالتأمل فى هذا النص نلاحظ أن التشكيل الفكرى فيه جاء فى أربعة محاور تكاد تكون متلاحمة ، ومترابطة ترابطاً عضوياً ، وكأنه جاء دفقة شعورية واحدة وها هى ذى :

(أ) "شكر وثناء" فى البيت (١)

(ب) "التأمل فى عظمة الخالق وقدرته وإبداع صنعه" فى الأبيات (٢ -٨)

(جـ) "الحث على التزود بالطاعة" فى الأبيات (٩ - ١١)

(د) "التأمل فى أخبار السابقين عظة وعبرة" فى الأبيات (١٢ - ١٦)

(هـ)" رجاء وتوسل " فى الأبيات (١٧- ٢١)

"أ"

"شكر وثناء"

حين نتأمل مطلع القصيدة ، وننتقل بين أفكارها وعوالمها ندرك أن الشاعر يمتلك حساً روحياً صادقاً ، ونفساً صافية هذبها الإسلام ، ونهلت من منابعه العظيمة ، حيث لم يستطع أن يكتم مواجده وانفعالاته الشجية ، بل انطلق فى شاعرية صادقة ، وجدة واثقة ، مجيباً على طلب ابن بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الإمام الحسن زين شباب أهل الجنة ، بما يليق بالقول فى حضرته ، فليس هناك أفضل من تذكيره بشكر الله والثناء عليه ، والتأمل فى إبداع خلقه وعظيم صنعه ، والحث على التزود بالطاعة ، والاعتبار بالسابقين، وهذا شئ طبيعى! فقد أثرت فى الشاعر تعاليم الدين

الجديد سلوكاً وفناً ، كتاباً وسنة ، وبذلك سيطرت الروح الدينية على الشاعر عاطفة وفكراً ، وأثرت فيهما تأثيراً قوياً ، بسبب قوته الإيمانية ، وصفائه النفسى ، واتصاله الروحى بالذات العلية ، فجاءت المقدمة متسمة بمسحة فلسفية تأملية دينية تدعو إلى الحمد والشكر لله فى قوله:

الحمد لله لا شريك له ∴ من لم يقلها فنفسه ظلما

"ب"

التأمل فى عظمة الخالق وقدرته وإبداع صنعه

بعد الحمد لله والشكر له سبحانه، ينتقل الشاعر فى يسر وسهولة إلى مناجاته جل فى علاه فى أنشودة روحية تأملية، يسبح فيها بحمده على نعمه وآلائه التى أنشأها من عدم ، فكل ما فى الكون ملك يمينه ، يؤكد سلطانه ، وينطق بعظمته وجلاله ، حيث يولج الليل فى النهار ، والنهار فى الليل ليفرج الظلمات ، ويبدد بضوئه سواده الحالك ، ليستقيم ناموس الكون ، فنعمه لا تحصى ولا تعد ، ومن لم يعترف بها اصبح جاحداً لربه، ظالما لنفسه، فهو القائل: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[1] وبذلك يلزمنا شكره سبحانه، والتسبيح بحمده حتى نكون قد وفينا قسطها.

وهو لا يعرض هذه الصور عرض الراصد الواصف بل عرض المستنبط للنتائج ، إذ ما يسجله من مظاهر عظمة الله وقدرته فى الكون، يحمل الإنسان على الإقرار بوحدانيته وتمجيده قولاً ويقيناً ، ويجعل قلبه مطمئناً بذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[2].

فيقول:

المولج الليل فى النهار وفى الـ ∴ ـيل نهاراً يفرج الظلما

(١) سورة النحل آية ١٨.
(٢) سورة الرعد آية ٢٨.

الخافض الرافع السماء على الـ ∴ أرض ولم يبن تحتها دعما

بعد ذكر الشاعر لعظمة الخالق فى كونه، وما فيه من مظاهر طبيعية تجعل الإنسان يقف أمامها طويلا يستكنه أسرارها ، وينطق بعظمة خلقها وخالقها متمثلا قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(١)

يسير على منهج القرآن فى دعوته الإنسان إلى التأمل فى نفسه ، وفى أفضل خلق الله على الله حيث قال سبحانه:﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢) من تصوير فى الأرحام ماء حتى يصير دماً ، ويتحول هذا الدم بقدرة الخالق العظيم نطفة يقدرها مقدر الأمور ، ويخلق منها بشراً "جسداً وروحا" مختلفاً فى الألسنة والألوان ، والمعايش والأخلاق.فيقول:

الخالق البارئ المصور فى الـ ∴ أرحام ماء حتى يصير دما
من نطفة قدها مقدرها ∴ يخلق منها الأبشار والنسما
ثم عظاما أقامها عصب ∴ ثمت لحما كساه فالتأما
ثم كسا الريش والعقائق أبـ ∴ ـشاراً وجلداً تخاله أدما
والصوت واللون والمعايش والـ ∴ أخلاق شتى وفرق الكلما

فالتفكر والتدبر له مزية عظيمة عند الله سبحانه وتعالى ، ولذلك ميز الله الإنسان عن سائر المخلوقات ، فمن خصائص هذا العقل "أنه يتأمل فيما يدركه، ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره، ويبنى عليها نتائجه وأحكامه"(٣).

فالصور العلوية التى ارتفع إليها أعظم الشعراء فى كل الأمم إنما كانت نتيجة التأمل فى هذه الآيات تأملاً يدعونا إلى مناجاتها، والتماس أسرارها حتى نصل إلى اليقين العقلى والإطمئنان النفسى.

(١) سورة يونس آية ١٠١.
(٢) سورة الذاريات آية ٢١.
(٣) التفكير فريضة إسلامية للعقاد ص١٠ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٨م.

(جـ)
"الحث على التزود بالطاعة"

فى هذه الفكرة يصور الشاعر لحظة من اللحظات الصاخبة الضاغطة التى تكشف عن مكامن الضعف البشرى، وتبرز كيف يكون الإيمان حصنا حصينا يعصم من الوقوع والتردى.

"فهو يشير إلى الصراع بين نوازع الغريزة التى تشد الإنسان إلى عالمه الأرضى بوصفه قبضة من طين ، وبين أشواقه التى تسمو به إلى المثل العليا بوصفه نفخة من روح السماء ، وهى تومئ إلى المنحنى الذى يعالج به الأدب الإسلامى لحظات الضعف البشرى التى يوشك فيها أن يقف على حافة السقوط، فيعصمه منها مذخوره الروحى من التقوى والخشية ، واستنهاض عزائمه الإسلامية"(١).

فيذكره بالآخرة وموقف الحساب، فـ "كل نفس بما كسبت رهينة" لذلك يجب علينا أن نأتمر بأوامر الإسلام ، ونعتصم بحصنه المبين فى هذه الدنيا الفانية الزائلة ، التى اختلط فيها الحابل بالنابل، والغث بالثمين، ولا منجا منها ولا ملجأ إلا إليه سبحانه.

لذا يجب على المرء أن يحاسب نفسه فى كل أحوالها "فمحاسبة النفس خطوة كبيرة فى إكساب الروح حساسية اللوم الباطنى ، وهو ما يوصل إلى التوبة ، ويتلوه تصحيح النفس من العلل والشوائب ، ولا تزال محاسبة المرء نفسه ترقى حتى لا تقف عند حد الأخطاء ، بل تتعدى إلى مهاجمة دفين السداد والتقصير فى الطاعة ، استنهاضا للهمة، وأخذاً للدين بالقوة"(٢)، فلا نجاة منها إلا من رحم ربى.فيقول:

ثمت لا بد أن سيجمعكم ∴ والله جهراً شهادة قسما

---

(١) فى الأدب الإسلامى قضاياه وفنونه د محمد الشنطى صـ ١٥٧ ط دار الأندلس ط سنة ١٩٩٣ م.

(٢) السمو الروحى فى الأدب الصوفى للحلوانى ط مصطفى البابى الحلبى مصر سنة ١٩٤٨م.

فـائتمروا الآن مـا بـدا لكـم ∴ واعتصـموا إن وجـدتم عصـما
فـى هـذه الأرض والسـماء ولا ∴ عصـمة منـه إلا لمـن رحمـا

"د"

"التأمل فى أخبار السابقين عظة وعبرة"

بعد محاسبة النفس وحثها على الطاعة، ينتقل بها فى سلاسة وانسيابية إلى ما يجعل هذا الحساب ماثلا أمامها، علّها تتعظ وتعتبر، مستلهما ذلك من أحداث التاريخ ، وأخبار الأمم السابقة الذين دار عليهم الدهر ، ورماهم بسهامه الطائشة ، وأفناهم عن آخرهم ، فلم يرده جاه ولا مال ، ولم يغن عنهم ملكهم شيئا ، وصار ما كان من مُلْك ومن مَلِك أشبه بحلم خاطف داعب خيال أحد النائمين ، فكل شئ يؤول إلى الأفول والذبول ، فبعد أن كان أهل فارس أصحاب حضارة ، وصولة وشكيمة ، أذلهم الله على أيدى المسلمين الفاتحين إلا من دخل فى دين الله، وأصبح ملكهم حلما ، وكذلك أهل سبأ أصحاب أقدم حضارة عربية فهم أول من بنى السدود لحجز المياه المنحدرة من أعالى الجبال ، وأصبحت بلادهم تنعم بالخضرة والجنان ، ولكنهم طغوا وبغوا، فأرسل الله عليهم سيل العرم، الذى حطم أمامه كل شئ، فمزقوا فى البلاد شر ممزق ، وذاقوا الذل والهوان بعد السكينة والاستقرار ، وبدلوا بالجنان والسدر والأراك الخمط الذى تقشعر من مرارته الأبدان،وهذا هو جزاء كل من يعلن على الله العصيان.فيقول:

يـا أيهـا النـاس هـل تـرون إلى ∴ فـارس بـادت وخـدها رغمـا
أمسـوا عبيـداً يرعـون شـاءكم ∴ كأنمـا كـان ملكهـم حلمـا
أو سـبأ الحاضـرين مـأرب إذ ∴ يبنـون مـن دون سـيله العرمـا
فمزقوا فى البلاد واعترفوا الـ ∴ ـهون وذاقـوا البأسـاء والعـدما
وبـدلوا السـدر والأراك بـه الـ ∴ خمـط وأضـحى البنيـان منهـدما

"هـ"

"رجاء وتوسل"

ويختم الشاعر قصيدته بما يساعد النفس على التوبة والرجوع بها إلى بارئها،وكأن التدفق الشعورى فى اتصال مستمر، فيجأر إلى الله بالدعاء والرجاء طالبا منه الصفح والغفران ، فهو القائل سبحانه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (١) فمن يلجأ إلى الله ويأوى إلى ركنه الحصين لا يخف إثما أو ذنبا،فهو سبحانه أقرب إلى العبد من نفسه"ولذا يكون اللجوء إليه أمرا طبيعيا، لأن الشاعر يجد فى من يسأله أو يشكو إليه صفة الخلود الذى لايزول،والثبات الذى لا ينمحى، فإنه أمام التغيرات الزمنية التى يعايشها ولا يجد فيها أملا حقيقيا، يكون الأمل الحقيقى عند باب الله"(٢) الذى يبعث فى نفسه الأمل والرجاء ، فيناجى ربه فى ابتهال روحى،واعتراف بالتقصير، وتلوم ذاتي ،ورغبة ملحة فى طلب العفووالمغفرة من الله ، فذنبه يؤرقه وينوء به كاهله .

إنها انتفاضة النفس اللوامة التى تجعله يتذكر مصيره يوم الحساب ، فيظهر خوفه من هذا اليوم،يوم يقتص منه الملك الجبار على كل ماقدمت يداه من آثام وأوزار،ويطرح فيه مع الكافرين فى النار حيث العذاب بالحديد والقار،إلا أن الأمل فى الله لا يبتعد فى هذه الرحلة الروحانية عن عقله وخاطره،متمنيا من الله أن يلحق بركب أهله وإخوانه الصالحين متمثلا قول الحق سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ

(١) سورة البقرة آية:١٨٦.
(٢) عوامل نهضة الشعر الدينى فى العصر الحديث د.حلمى القاعود صـ٢٥٤ مجلة عالم الفكر العدد الثانى سنة١٩٨٩م.

﴿ٱلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ (١)

فيقول:

يـا مالـك الأرض والسـماء ومـن ∴ يفـرق مـن الله لا يخـف أثمـا
إنـى امـرؤ قـد ظلمـت نفسـى وإلا ∴ تعـف عـنى أغـلا دمـا كثمـا
أطرح بالكـافرين فـى الـدرك الـ ∴ أسـفل يـارب أصـطلى الـصرمـا
يرفـع بالقـار والحديـد مـن الـ ∴ ـجوز طـوالا جذوعـها عممـا
نـودى قـم واركـبن بأهلـك إنـ ∴ ـا لله مـوف للنـاس مـا زعمـا

وبذلك استطاع لشاعر أن يجمع كل أطـراف البعـد الفكـرى للتجربة الشعرية فى براعة فنية فائقة سيطر عليها انفعـال روحـى مشحون بملامح إيمانية روحية ، يصدر عن نفس صافية تشبعت بقيم الإسلام الرائدة، وروافده الروحية المحلقة ، مما جعلنا نحلق معه فى تلك العوالم، ونشاركه مشاعره وأحاسيسه ، وهذا هو منتهى الصدق الفنى.

(١) سورة الطور آية: ٢١.

ثانياً : البعد الجمالى الفنى

(أ) التجربة الشعورية:

إن قراءة النص القائمة على الجمال والفن تحاول جاهدة أن تكشف عن عمق التجربة، ومابين الألفاظ ومدلولاتها من توافق وترابط وانسجام ، حتى تصل إلى الإشعاعات التى تنشأ عن مقدار ماتوحى به الكلمة من طاقة إيحائية ومعان باطنية ممتدة ، وما تثمره العلاقات اللغوية من أبعاد جمالية تكسب التجربة حيوية وعمقا ، وترابطا وتآلفا.

والنابغة هنا يخوض تجربة روحية صادرة عن نفس تشبعت بالقرآن الكريم نصاً وروحاً ، وأنموذجاً حياً للالتزام الحرفى بالرؤية الإسلامية.

وقد بدأها الشاعر ارتجالاً حيث حمد الله وأثنى عليه، وبين فائدة الحمد والشكر لله على نعمائه ، فمن لم يشكره سبحانه ، وقع فى الظلم لا محالة ، فيهتف فى ضراعة:

الحمد لله لاشريك لـه ∴ من لم يقلها فنفسه ظلما

ثم أبرز صفات الصانع المدبر فهو الذى يولج الليل فى النهار ، والنهار فى الليل لتستقيم أمور الحياة خدمة لمخلوقه الذى كرمه ، وخلقه فى أحسن تقويم ، مبينا مراحل الخلق التى تدل على عظمة الخالق ، وحسن صنعه ، وأن وراء هذا الكون مدبر قدير جدير بالشكر والثناء ، وحسن الإخلاص والعبادة :

الخالق البارئ المصور في الـ ∴ أرحام ماء حتى يصير دما

ثم يحرص الشاعر على التذكير بيوم الحساب وأنه سيجمعنا جميعا ليوم لا ينفع فيه جاه ولا سلطان "إلا من أتى الله بقلب سليم" :

ثمت لابد أن سيجمعكم ∴ والله جهرا شهادة قسما

ولكي نعمل لهذا اليوم ساق لنا مقام العظة والعبرة بالسابقين، الذين كان ملكهم بمثابة حلم داعب خيال النائم ، آخذا نفسه وغيره بالتأمل فيما حدث :

ياأيها الناس هل ترون إلى .:. فارس بادت وخدها رغما

ثم يختم قصيدته بترنيمة رائعة مفعمة بالمشاعر والأحاسيس، ساق فيها الخوف من الله والرجاء فى عفوه سبحانه ، فى يوم تكون فيه " كل نفس بما كسبت رهينة" .

ولذلك كان الباعث على هذه الدفقة الشعورية قوى ومهم، فالموقف موقف روحى وهو تذكير بعظمة الخالق فى خلقه ، وملكوته ،وطلب عفوه ومغفرته، ولذلك مكنه هذا الباعث من أن يفرغ كل طاقاته الشعورية بشكل مباشر وصريح ، فترك نفسه على سجيتها تعلن عن انطلاقها فى هذا الملكوت النورانى الجميل، وهذا لا يتأتى إلا لمن صفت نفسه، وهامت روحه بالملأ الأعلى.

فجاءت تجربته فى انسيابية تامة، فلم تقصر خطاه أوتضطرب، ولم تتعارض أفكارها أوتتناقض ،وهذا يرجع إلى وضوح الرؤية أمام الشاعر، ومعرفته بإمكانياته المتاحة،فليس بين يديه سوى هذه النفثات الروحية التأملية فى أصعب لحظات الوقوف مع النفس ، حين يحثها على التأمل فى الذات العلية، وأن وراء هذا الكون خالق قادر مدبر يستحق الشكر والثناء .

وبقدر توفيق الشاعر فى إيجاد التوافق بين عناصر تجربته كان موفقا فى عرضه لهذه العناصر، وإن كانت فى بعض أفكارها مطروحة لدى الشعراء جميعا، إلا أنه أجاد فى ترتيبها وحسن عرضها، ونفخ فيها من روحه فبدت وكأنها من ابتكاراته ، وتلك غاية ما يطلب من الشاعر" إذ إن ما يخرج من القلب يقع فى القلب ، وما يخرج من اللسان لايتعدى الآذان"[1] .

على هذا النحو جسد الشاعر رؤيته الإبداعية في إطار منسجم تلاحمت فيه الأجزاء.

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا صـ٢٢.

(ب) الألفاظ والأساليب:

تعد الألفاظ الأساس الأول والعنصر الأهم فى صياغة الأساليب الأدبية ، فمنها يكون الشاعر عباراته ، وبها يرسم صورته ، ويحدد ملامح أسلوبه ، ويفصح عن أفكاره " فاللفظ هو وسيلتنا الوحيدة إلى إدراك القيم الشعورية فى العمل الأدبى ،وهو الأداة الوحيدة المهيأة للأديب لينقل إلينا خلالها تجاربه الشعورية ، وهو لا يؤدى هاتين المهمتين إلا حين يقع التطابق بينه وبين الحاله الشعورية التى يصورها، وعند إذ فقط يستنفد على قدر الإمكان تلك الطاقة الشعورية ويوجهها إلى نفوس الآخرين"[1] فبقدر ما يكون الاهتمام بانتقاء الألفاظ ومعرفة إيحاءاتها، بقدر ما تشرف الأساليب ،وترقى القصائد درجات عالية فى سلم البلاغة ،وجمال الصياغة ، وحسن الأداء.

وقد كان الشاعر كذلك ، فكما وفق فى تجسيد مشاعره بصدق وأمانة ، وفق كذلك فى توخى الصياغة الملائمة لتصوير هذه الدفقة الشعورية التى هزت مشاعرنا ، وجعلتنا نعيش معه فى هذا الجو الروحى الذى يذكرنا بنعم الله وآلائه وقدرته وجبروته.

فقد خلت هذه القصيدة من المقدمة الطللية وما يليها عادة من أغراض فى بناء القصيدة الجاهلية نظرا لطبيعة الموقف الشعورى والنفسى الذى يترجم عنه الشاعر، والذى يضع المتلقى مباشرة فى قلب المعنى ، ويثير فيه الاستجابة الانفعالية التى تؤهله لتلقى تلك الشحنة الروحية الممتدة فى نفس الشاعر، حيث بدأ قصيدته بأول المعانى الإسلامية السامية وهى "الحمد لله" ، والشكر له، والثناء عليه سبحانه، فهو المنعم الذى لا تحصى نعمه ،ولذلك جاءت ألفاظه عذبة سهلة فى موضعها الأصيل المناسب ، وموائمة لمعانيها ،

(١) النقد الأدبى الحديث أصوله ومناهجه سيد قطب صـ ٧٠ ط دار الشروق القاهرة ط خامسة ١٩٨٣م.

وبهذا يكون ملتزما بما نص عليه النقاد القدامى "بأن تقسم الألفاظ على رتب المعانى"(١).

فسهولة الألفاظ وبساطتها لاتعنى السطحية " ولكنها علامة الصدق وسمته ،وفوق ذلك تعد من ملامح النبوغ " (٢).

ومما زادها سلاسة ووضوحا اتكاء الشاعر على المعجم القرآني الذى انسابت ألفاظه فى شعره انسياب النسائم، ففى مقام الحديث عن عظمة الخالق يأتى بصفاته سبحانه كما جاء بها النص الكريم فهو "الخافض ، الرافع ، الخالق ، البارئ ، المصور" وجاءت هذه الصفات على صيغة اسم الفاعل لتدل على ثبوتها لله وحده، وتنفيها عن غيره سبحانه فهو "ليس كمثله شئ".

وفى مقام الحديث عن الخلق ومراحل خلق الإنسان، يسير الشاعر على نفس المنهج مستخدما الألفاظ التى تصور هذه المعجزة الفريدة، التى تجعل الإنسان يعيش فى عوالم الفكر والتأمل الذى يؤدى إلى الصفاء الروحى والنقاء النفسى، متكئا على قوله تعالى: "وفى أنفسكم أفلا تبصرون" فلجأ إلى الألفاظ التى تدل على المعانى السابقة من "نطفة ، قدرها ، أبشار ، نسما ، عظاما ، لحما ، كسا ، جلداً ، الصوت ، اللون" وعلى القارئ ألا يخدع بسهولة ألفاظه، بل عليه أن ينقب عن مدلولاتها وسيرى أن الشاعر يتسم بالدقة اللغوية ،والكلمة فى مكانها من البيت ، ووضعها فى القصيدة تتفتح عن آفاق جديدة.

فعندما يتحدث الشاعر عن موقف الحساب، يقسم بلفظ الجلالة حتى لا يدع مجالاً للشك فى هذا اليوم ، وليرد بقوة على الذين

---

(١) الوساطة للجرجانى صـ ٢٤.

(٢) فن الأدب من مختارات سوينهاور صـ٦٨ ترجمة شفيق مقار سنة ١٩٦٦م.

ينكرون البعث والحساب ، وليزلزل القلوب بتذكيرها لهذا الموقف حتى ترجع إلى رشدها ، وتبعد عن غيها فيقول :

ثمت لا بد أن سيجمعكم ∴ والله جهراً شهادة قسما

وعندما نتأمل تعامل الشاعر مع الزمن اللغوى نراه لايأتى بالفعل إلا فى المواقف التى لا يصلح فيها إلا ذلك ، فعندما يحثهم على الطاعة يستخدم أفعال الأمر مثل: "فائتمروا - اعتصموا" وهى دالة على النصح والإرشاد.

وفى مقام الحديث عن الأمم الماضية أخذاً للعظة والعبرة، يؤثر الشاعر الأفعال الماضية التى تدل على ذلك مثل : "بادت ، أمسو ، كان، مزقوا ، اعترفوا ، ذاقوا ، بدلوا ، أضحى".

وتأتى الأفعال المضارعة لتدل على التجدد والاستمرار، سواء فى موقف العفو والغفران ، أو فى العذاب الذى يلحق بالكافرين مثل :" يفرق ، تعف ،أطرح ، يرفع " .

وقد لجأ الشاعر إلى بعض المفردات عمداً ليوظف الثقل فيها لإبراز بعض الجوانب الشعورية على نحو ما جاء فى قوله :

من نطفة قدها مقدرها ∴ يخلق منها الأبشار والنسما

فإن تكرار حرف (الدال) بثقله فى النطق ، أتعب هذا البيت وأثقل نطقه، لكن هذا الثقل جاء متوائما مع ما يشعر به من قوة الموقف وصعوبته ، ودقته ، فهو دليل على قدرة الخالق وعظمته.

وعلى هذا النحو آثر الشاعر توظيف الصيغة المضعفة "مزّقوا ، بدّلوا" للدلالة على التشتيت والتمزق ، والتغير الذى لحقهم بسبب طغيانهم وكفرهم ، فالجزاء من جنس العمل، وبناء هذين الفعلين للمجهول تأكيد لهذا الحدث، وأن كل من يتمرد على نعم الله سيلقى مثل هذا الجزاء.

كذلك عنى الشاعر بتوظيف الأسلوب فى الوفاء بغايته من إحداث التجاوب النفسى والشعورى بينه وبين المتلقى ، ومن هذه الاساليب :

توظيفه لصيغة اسم الفاعل فى قوله :

الخافض الرافع السماء على الـ .:. أرض ولم يبن تحتها دعما
الخالق البارئ المصور فى الـ .:. أرحام ماء حتى يصير دما

ليوحى به إلى الثبوت واليقين الذى يدل على قدرة الخالق وعظمته.

كذلك عمد الشاعر إلى تكرار المادة الواحدة للتأكيد والتنبيه واثارة التوقع لدى السامع للموقف الجديد ، ومشاركته إحساسه ونبضه الشعرى مثل مادة "عصم" فى قوله :

فانتمروا الآن ما بدا لكم .:. واعتصموا إن وجدتم عصما
فى هذه الأرض والسماء ولا .:. عصمة منه إلا لمن رحما

فتكرار كلمة "عصم" تأكيد لهول هذا الموقف ، وأن العصمة لن تكون إلا لفئة معينة، اختصها الله سبحانه فى قوله:﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(١).

وكما عمد الشاعر إلى التكرار لتأكيد المعنى عمد أيضا إلى أساليب أخرى تفى بهذا الغرض مثل : القسم فى قوله :

ثمت لا بد أن سيجمعكم .:. والله جهراً شهادة قسما

فقد ساقه الشاعر قطعا للشك ، وإقراراً لليقين، ورداً على المنكرين وتأكيداً على حقيقة البعث.

وإن التى تفيد الشك فى قوله :

فانتمروا الآن ما بدا لكم .:. واعتصموا إن وجدتم عصما

وذلك للشك فى أن يوجد لهم عاصم غير الله.

وكذلك القصر القائم على النفى والاستثناء فى قوله :

فى هذه الأرض والسماء ولا .:. عصمة منه إلا لمن رحما

---

(١) هود آية (١١٨ ، ١١٩).

يعطى المعنى شيئاً من المبالغة والادعاء ، ويؤكد أنه لا عصمة من الله إلا إلى الله.

كما أن مجيء لفظة(نطفة) نكرة فى قوله :

من نطفة قدها مقدرها ∴ يخلق منها الأبشار والنسما

دليل على معنى التقليل الذى يثير فى النفس الدهشة من عجيب قدرة الله فى تكاثر البشر " عن طريق نطفة مائية تخرج من صلب رجل ، فتستقر فى رحم امرأة، نقطة واحدة لا٠ بل خلية واحدة من عشرات الخلايا الكامنة فى تلك النقطة "(١) فتنشئ بشراً سوياً.

كما نلمح فى هذا البيت أيضا ملمحاً بلاغياً آخر وهو تقديم ما حقه التأخير مما يكسب المعنى قوة، ويمنحه تأكيداً وتخصيصاً، إذ فيه خروج على المألوف ، مما يجعل المتلقى أذناً صاغيةً ، وقلباً واعياً ، ويعقد مشاركة فعالة بين المبدع والمتلقى.

وفى قوله:

يا مالك الأرض والسماء ومن ∴ يفرق من الله لا يخف أثما
إنى امرؤ قد ظلمت نفسى وإلا ∴ تعف عنى أغلا دما كثما
أطرح بالكافرين فى الدرك الـ ∴ أسفل يا رب اصطلى الصرما

جاء النداء متنفسا للكربات التى تعتصره من داخله، وإحساسه بقوة خالقه ،وخوفه من ذنوبه وآثامه،معبرا عن ذلك بأسلوب الإضافة الذى يؤكد أن الدعاء لا أهمية له إن لم يكن موجها لمالك الأرض والسموات ،فالإضافة أفادت التخصيص، ثم يتبع ذلك بأسلوب التأكيد" بإن" و" قد" التى تفيد التحقيق ليدلل على وقوعه فى الذنب وإن لم يأت العفو تغلى الدماء وتفور فى عروقه مما يشعره بالضيق والقلق النفسى،ثم أتبع النداء بالشرط فى قوله: "وإلا تعف عنى أغلا دما كثما "إقرارا بذنبه وطمعا فى عفو ربه، وهو فى هذا البيت يسبح

(١) فى ظلال القرآن سيد قطب ٢٤٥٨/٤.

فى محيط النص القرآنى ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١) تم يأتى بالفعل المبنى للمجهول فى قوله: "أطرح بالكافرين فى الدرك تسمير بالأسود ." ليؤكد حقيقة عذاب الكافرين،ويأتي بالمعنى متناغما مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (٢).

وقد تنوعت الأساليب في القصيدة فجاءت الأساليب الإنشائية إثارة لوجدان المخاطب وسمعه وتنبيهه إلي ما سيلقي عليه، والاستحواذ علي مشاعره وجذب انتباهه ودفعه إلي مشاركة الشاعر في تأملاته الروحية، ومناجته للذات العلية كما جاء في قوله:

فأتمروا الآن ما بدا لكم....
يأيها الناس هل ترون إلي فارس...
يا مالك الأرض والسماء.....

وإلي جانب الأساليب الإنشائية جاء الأسلوب الخبري بأبعاده العميقة التي تدعوا إلي التأمل الدقيق فيما يحمله من معاني تأملية في الخالق وقدرته في خلقه، مستحضراً تاريخ حضارة سبأ المأساوي ومستأنساً به عبرة للحاضر، وما يستتبع هذه المقابلة من تأمل وحسرة.

كما في قوله:

أو سبأ الحاضرين مأرب إذ ∴ يبنون من دون سيلة العرما
فمزقوا في البلاد واعتزفوا الـ ∴ هون وذاقوا البأساء والعدما

وكذا تصوير أحوال الكافرين ومن معهم وتعذيبهم بالقار والحديد في جهنم وكأنهم جذوع كثيفة خاوية كما في قوله:

أطرح بالكافرين في الدرك الـ ∴ أسفل يا رب أصطلي الصرما
يرفع بالقار والحديد ومن الـ جوز طوالا جذوعها عمما

(١) آل عمران آية ١١٧
(٢) النساء آية ١٤٠.

كذلك عمد الشاعر إلي(الاقتباس والتضمين) وهو ما يعرف في النقد الأدبي الحديث (بالتناص)[1] ليحول القصيدة من تجربة محددة إلي عمل فني متكامل يشمل الرؤية الشاملة للوجود " مما يفتح قنوات متعددة لإثراء الانفعال الذي ينفصل بالطبع عن صور الفكر المصقولة مما يجسد القصيدة ويكسبها نماء تتحول به إلي حشد كثيف من الدلالات والإيحاءات تغني التجربة الشعرية ككل"[2] ففى قوله:

يأيها الناس هل ترون إلي ∴ فارس بادت وخدها رغما
أمسوا عبيدا يرعون شاءكم ∴ كأنما كان ملكهم حلما

تمكن الشاعر من خلال هذا التناص التاريخي مع حضارة فارس وما حدث لها من التبديل والتغيير، تحريك مشاعر المتلقي وانفعالاته عن طريق عقد مقارنة بين الماضي والحاضر ، فالشاعر أسقط ملامح هذا الحدث التاريخي علي الحاضر، في استخدام فني يتواءم فيه جانبا الحاضر والماضي مع بث تكثيفي جاء بصيغتي " النداء والاستفهام" في البيت الأول المحملتين بعدة معاني لشحذ الهمم والنفوس والنظر فيما حولها، علها تفيق من واقعها المظلم وتعتبر بالسابقين.

إلي جانب ذلك وظف الشاعر التناص القائم علي الدور الذي لعبته الأحداث التاريخية التي أشار إليها القرآن داخل النص بحيث "يمكن للمبدع توظيف الشخصية التراثية المستدعاة من خلال آلية

---

(١) هو"أحد مميزات النص الأساسية، والتي تحيل نصوص على نصوص أخرى سابقة عنها أو معاصرة لها " معجم المصطلحات الأسلوبية المعاصرة سعيد علوش صـ٢١٥ دار الكتاب العربي بيروت ط أولى ١٩٨٥.

(٢) الخطيئة والتكفير من البنيوية علي التشريحية د/ عبد الله الغذامي صـ٥٧ ط النادي الأدبي الثقافي سنة ١٩٨٥م.

الدور عبر تقنيات متعددة مثل المزج والتداخل بين ما هو تراثي وما هو حديث لخلق رؤية جديدة[1] .

وهذا الإستدعاء يعتمد في أغلب الأحيان علي توظيف الأحداث التاريخية أو الشخصيات التراثية صاحبة الأدوار الحية في الذاكرة الجماعية مثل أدوار الحضارات، أو الأنبياء، أو القادة الذين شهد لهم التاريخ علي مر العصور.

ومن خلال فاعلية هذا الدور وظف الشاعر ما حدث لحضارة سبأ واستشفاف دورها في شعرنة الموقف الشعري وتكييف إيحاءاته ،فيقول:

أو سبأ الحاضرين مأرب إذ ∴ يبنون من دون سيله العرما
فمزقوا في البلاد واعترفوا الـ ∴ ـهون وذاقوا البأساء والعدما
وبدلوا السدر والأراك به الـ ∴ ـخمط وأضحى البنيان منهدما

لقد جاءت آلية الاستدعاء في هذه الأبيات مواكبة لغرض الشعر الدلالي حيث قام باستدعاء الحدث التاريخي من خلال فاعلية الدور فقط بوصفة خلفية تراثية، فالموقف الشعري تمثل الخطاب القرآني في قولة تعالي: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾[2] .

والواضح أن هذا التمثيل القرآنى يتم علي الموافقة فى الصورة مع النص القرآني، وقد كان الشاعر موفقاً تماماً في استدعائه لهذا الحدث التاريخي داخل النص، من خلال آلية الدور وتجليات الموقف،

(١) أشكال التناص الشعري دراسة في توظيف الشخصيات التراثية أحمد مجاهد صـ٨٨ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٨م.

(٢) سورة سبأ آية:١٦.

وهذا ما يعكسه قوله: "سيل العرم، سبأ الحاضرين، فمزقوا في البلاد، بدلوا السدر،به الخمط، أضحي البنيان منهدما" وهكذا نجد أن الإنتاجية الشعرية عند "النابغة الجعدي" تمثل نوعاً من استعادة النص الديني في شكل جليّ.

مما يدل علي ثقافته الواسعة وتمثله لعناصر التراث الديني المتمثل في القرآن الكريم.

إلى جانب ذلك وظف الشاعر المكان فى هذه القصيدة توظيفا رائعاً يوحى بالدلالات الأسطورية التى تثير فنيا لواعج العزاء لهذه الحضارات ، وتبعث فينا معانى العظة والاعتبار مما حدث لها، وذلك فى الحديث عن حضارتى سبأ وفارس.

(جـ) الصورة الشعرية:

تعتبر الصورة الشعرية أداة فعالة فى تجسيد المعنويات، بحيث تبدو للرائي وكأنها أمام عينيه، إن أحسن استغلالها والاستفادة منها، ووظفها بطريقة موفقة تخدم تجربته وتعمق فكرته .

"فهي الوسيلة الفنية التي يستطيع الشاعر من خلالها التأثير علي قرائه أو سامعيه من خلال عاطفته الجياشة وخياله الخصب، وأسلوبه العذب وتصويره الجميل"[1] فالشعر خاصة لا يناسبه إلا التصوير البياني أي التعبير عن طريق الصورة [2] " علي أن الشاعر في صوره " لا يبرز ما يراه أو يسمعه إنما يعبر عما ارتسم علي صفحات نفسه ويصور الأثر الذي أحث به،ووسيلته في ذلك خياله"[3]

---

(١) الأسلوب أحمد الشايب صـ١٣٤ المكتبة الفاروقية الإسكندرية ١٩٣٩م.

(٢) الأدب وفنونه د محمد مندور صـ٣٨ دار نهضة مصر للطباعة والنشر- القاهرة.

(٣) الأصول الفنية للأدب عبد الحميد حسن صـ٩٨ طبعة الأنجلو القاهرة ١٩٤٩م.

وقد وفق النابغة الجعدى فى توظيف أدوات الصورة التى اعتمدت فى أكثرها اعتماداً كلياً على الصورة القرآنية كما جاء فى الفكرة "ب" فى الأبيات (٢ - ٨) التى تصور مراحل خلق الإنسان والفكرة "د" فى الأبيات (١٢ - ١٦) التى تصور ما حل بحضارتى فارس وسبأ.والفكرة "هـ" فى الأبيات (١٧- ٢١) القائمة على التوسل والرجاء .

ففى الفكرة (ب) التى تصور مراحل خلق الإنسان جاءت الصورة لترسخ حقيقة الخلق وعظمة الخالق – سبحانه –فى قلوب المنكرين وغيرهم ،مما لا يدع مجالا للشك فى هذا الأمر، إذ يقول :

الخالق البارىء المصور فى الـ ∴ أرحام ماء حتى يصير دما
من نطفة قدها مقدرها ∴ يخلق منها الأبشار والنسما
ثم عظاما أقامها عصب ∴ ثمت لحما كساه فالتأما

وتحويل هذا الدم بقدرة الخالق نطفة يخلق منها بشرا مختلفا فى الألسنة والألوان والمعايش والأخلاق، يواكبه ما جاء به العلم الحديث فى حديثه عن تكاثر البشر عن طريق نطفة مائية تخرج من صلب الرجل فتستقر فى رحم المرأة، ولحمايتها جعلها سبحانه فى الرحم " الغائرة بين عظام الحوض المحمية بها من التأثيرات باهتزازات الجسم ، ومن كثير ما يصيب الظهر والبطن من لكمات وكدمات ، ورجات وتأثيرات"[1] .

ثم يزيد الشاعر الصورة كثافة ويعايش أمتع لحظات الإعجاز الإلهى فى وصول هذه النطفة إلى مرحلة العظام ،ثم كسوتها باللحم كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾[2] .

(١) فى ظلال القرآن سيد قطب ٢٤٥٨/٤ .
(٢) سورة المؤمنون آية١٤ .

وهو مما يدلل على عظمة الخالق ، ويتيح للنفس نطاقاً واسعاً للتأمل والتدبر ــ فى خلق خلايا العظام قبل خلايا اللحم ــ وهذا من أهم وظائف الصورة.

فالمتأمل فى هذه الأبيات يتحول ذهنه بسرعة فائقة إلى قوله تعالى : ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ (١) .

ويقف مدهوشا أمام ما كشف عنه القرآن الكريم من حقيقة علمية فى تكون الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيراً بعد تقدم علم الأجنة التشريحى، وذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم، وقد ثبت أن خلايا العظام هى التى تتكون أولا فى الجنين، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظام وتمام الهيكل العظمى للجنين(٢).

وهى الحقيقة التى يسجلها النص القرآنى ، والتى استقى الشاعر منها صوره .

بعد هذا التصوير الرائع لخلق الإنسان، نلمس تأكيدا موجزا على أن الموت بعد هذه الحياة، والبعث ليوم القيامة والوقوف للحساب، حيث لا أنساب ولا أحساب بل ثواب وعقاب ، ولا عصمة منه إلا لمن رحم ربى ، وهذا يعطى بعدا تهويلا ومفزعا للصورة التى يكون عليها الإنسان فى هذا اليوم ، وفى ذلك يقول:

ثمت لا بد أن سيجمعكم ∴ والله جهراً شهادة قسما
فانتمروا الآن ما بدا لكم ∴ واعتصموا إن وجدتم عصما
فى هذه الأرض والسماء ولا ∴ عصمة منه إلا لمن رحما

أما الفكرة (د) فى الأبيات (١٢-١٦) التى تصور ما حل بحضارتى فارس وسبأ، يرسم الشاعر من خلالها صورة لما حل بهما أخذاً للعظة والعبرة فيقول :

---

(١) سورة المؤمنون آية١٤ .
(٢) فى ظلال القرآن سيد قطب ١٢٥٩/٤ .

يـا أيهـا النـاس هـل تـرون إلى ∴ فـارس بـادت وخـدها رغمـاً
أمسـوا عبيـداً يرعـون شـاءكم ∴ كأنمـا كـان ملكهـم حلمـا
أو سـبأ الحاضـرين مـأرب إذ ∴ يبنـون مـن دون سـيلة العرمـا
فمزقـوا فـى البـلاد واعترفـوا الـ ∴ ـهون وذاقـوا البأسـاء والعـدما
وبـدلوا السـدر والأراك بـه الـ ∴ خمـط وأضـحى البنيـان منهـدماً

ولكى يكشف الشاعر معالم هذه الصـورة يلجـأ إلـى الـنص القرآنى الكريم ينهل من معينه ، ويأخذ من فيض نوره ما يرسخ هذه الصورة فى ذهن المتلقى(١).

فقد دار عليهم الدهر، ورماهم بنباله، وأصابهم فى نحـورهم، وبدلوا بالسيادة والرياسة الذل والعبودية، وبالطمأنينـة والاسـتقرار التشرد والضياع، وبالجنان والسدر والأراك الخمط الذى تقشعر مـن مرارته الأبدان، وهذا جزاء كل من تسيطر عليـه الـدنيا ، وتغـره الأمانى ، ويطن على الله العصيان.

والصورة على هذا النحو تموج بالحركة والحيوية الممثلة فـى هذا التبديل المفاجئ والحلم الخاطف، والآمال المهتـزة، والمصـائب المتلاحقة، التى زلزلت منهم الأركان ، وهدمت منهم البنيان، وهـى صورة تعطى للنفس مزيداً من التأمل والتدبر والمراجعة المتواصلة، كما أنها حركة تتجانس فى انسجام لتوضح معالم الصورة الشـعرية كما أرادها الشاعر.

وقول الشاعر فى الفكرة (هـ):

إنى امرؤ قـد ظلمـت نفسـى وإلا ∴ تعـف عـنى أغـلا دمـا كثمـا
أطرح بالكافرين فى الدرك الـ ∴ أسـفل يـارب أصـطلى الـصرمـا
يرفـع بالقـار والحديـد مـن الـ ∴ جـوز طـوالا جـذوعها عممـا

يعتمد علي البنية المجازية القائمة علي الكناية في البيتين الأول والثاني والتشبيه في البيت الثالث التي تنتج بدورها مشابهات جديدة، فاستعارة الشاعر التركيب القرآني ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ

(١) انظر الآيات فى سورة سبأ (١٤-١٩).

لَتَّ إِنَّكَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [1] وقوله تعالي: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ [3] وقوله تعالى : ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ [4] في سياقه الشعري يفتح المجال الدلالي لخلق مشابهات من نوع جديد تعمق الصورة الشعرية المستحضرة.

فهذه الأبيات تقوم علي التماثل التام من حيث البنية في النصوص القرآنية السابقة لأنها تعتمد علي دليل مرجعي يرجع الصورة إلي عناصرها الأولية أو منبعها الأصلي وهو القرآن الكريم، وهكذا اعتمد الشاعر في صورته على البنية المجازية بنوعيها الكنائي والتشبيهي باعتبارها الأقدر علي تمثل عناصر الصورة المستوحاة للتعبير عن شدة الموقف وهول الصورة المستحضرة.

(د) الأفكار:

نتيجة لما سبق جاءت أفكاره فى النص فى تسلسل وترابط منسجم مع معانيها فى إطار من الترابط الفكرى والفنى، بحيث تتآزر الألفاظ والعبارات والأفكار والأخيلة فى نمو التجربة الشعرية ونجاحها واستمرارها .

وبالتأمل فى هذه القصيدة نلحظ هذا الترابط الفكرى، فقد جاءت أفكارها مرتبة ترتيبا بديعاً حيث بدأها بالحمد والشكر لله وتنزيهه عن كل ما لا يليق به سبحانه، ثم انتقل إلى صفاته التى تؤكد وتدلل على ما سبق ، ثم ينتقل بيسر وسهولة للحديث عن معالم القدرة الإلهية وعظمتها فى الكون والخلق مبينا أثر ذلك فى مراحل خلق الإنسان ،

(١) القصص آية ١٦.
(٢) النساء آية ١٤٠.
(٣) الحج ٢١..
(٤) الحاقة آية ٧.

ثم يذّكر هذا الإنسان بأن أعماله محسوبة عليه فى يوم الحساب الذى لا مفر ولا مناص منه إلا برحمة الله وفضله على عباده ،وطالما الأمر كذلك فلا بد لنا من العظة والعبرة، وذلك بتأمل أخبار السابقين الذين ملكوا الدنيا، وتهيأت لهم الأسباب التى لم تهيأ لغيرهم، ومع ذلك أصبحوا فى طى النسيان، وكأنهم حلم داعب خيال أحد النوام.

وبذلك يكون قد هيأ نفسه للمناجاة والتوسل لمالك الأرض والسماوات عله يغفر له ذنبه ويقله من عثرته، خوفاً من ناره وطمعا في جنته، ثم يختم قصيدته بما تتوق إليه النفس من الأمل والرجاء فالله موف لعباده ما وعدا.

ومن هنا نرى أن البناء الفنى والنفسى فى القصيدة ترابطا ترابطاً وثيقاً لابأس به "ولقد رأيناه ينتقل فى قصيدته من فكرة إلى فكرة دون أن يخلط أفكاره ،وقد توافر له بذلك ما نطلبه فى القصيدة التامة الخلق الكاملة التكوين ، التى تكون كما يقول الحاتمى: كالإنسان لكل عضو فيه مكانه الذى لا يحسن أن يحل فيه عضو آخر كما لا يصلح أن يبتر منه عضو دون أن نحس بعاهة تتخونه". (١)

وأظن أن ما يطلبه النقد الحديث فى مفهومه عن الوحدة العضوية، يجد له شاهدا فى هذه القصيدة .

أما عن الوحدة الموضوعية : فقد التزم الشاعر في هذه الرؤية الإبداعية منهجاً واحداً وموضوعاً واحداً، وهو "التأمل في عظمة الخالق وبيان قدرته فى ملكوته" فالموقف موقف روحي تأملي، يذكر بالآخرة ويحث على العمل لها ، والاعتبار بالسابقين الأولين الذين كانت لهم الهيمنة والقوة بين أقرانهم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، بين عشية وضحاها ، وألبسهم لباس الذل والهوان بعد الرفعة والسلطان ، ومزقهم فى كل مكان بعد الأمن والأمان ،وفى النهاية

(١).فى ميزان النقد الأدبى د طه أبوكريشه صـ١٣٨ القاهرة ١٩٧٦.

يلجأ إلى الله بالدعا والرجاء، ومن هنا كان هذا الموقف لا يحتمل مطالع ، أو تعدداً فى الأغراض ، تماشياً مع الحياة الجديدة التي اختلفت في مصادرها عن الطبقة الفنية الجاهلية، والموقف الشعورى والنفسى التى أملته التجربة على الشاعر.

(هـ) الموسيقي:

إن النص الشعري تتعدد أبعادة الجمالية والبحث عن أسرار هذا الجمال ربما يكمن في البناء الموسيقي، وربما يكمن في التشكيل بالصورة، وربما يكمن في البنية اللغوية، والإحساس بالزمن، وكل الأبعاد السابقة تنبثق من الطاقة الشعورية المتدفقة تدفقها من كيان النص، وهو بدون هذه الطاقة يعد نهراً جافاً وحديقة يابسة وأفقاً منطفئ النجوم(١) .

والشاعر -النابغة الجعدي- لديه إحساس فطري بجمال الإيقاع، وملكته الإبداعية في هذا الجانب تجعل من الإيقاع الصوتي في تجربته وسيلة ثرية عميقة تضيء التجربة وتكشف عن خباياها وتنبئ عن أسرارها، فالقصيدة تنبع من إحساس روحي تأملي وهذا الإحساس يخالطه الشجن والقلق ، ولكنه في النهاية يتضاعف لديه الإحساس بالسمو والصفاء والأمل في عفو الله وكرمه.

وقد وفق الشاعر حين صاغ قصيدته في القالب النغمي لبحر المنسرح ووحداته الإيقاعية هي: (مستفعلن مفعولات مستفعلن) فى كل شطر.

---

(١) موسيقى الشعر بين الثبات والتطور د . صابر عبدالدايم صـ ١٥ ط دار الأرقم بالزقازيق.

ليصب من خلاله هذه الدفقة الشعورية ، وهو من الأبحر التى تتميز بالخفة والسهولة لانسراحه ورشاقته.(١) وهو مناسب للمقام الذى صب الشاعر فيه تجربته.

وفى المقابل آثر الشاعر حرف "الميم" بهدوئه ، ورقته وخفته ليكون قافية فى مقام المناجاة الإلهية، والتذكير بآلاء الله ونعمة على عباده، وقدرته البالغة فى تصريف الكون، والتذكير بمواقف الآخرة، والاعتبار بالسابقين.

بعد هذا كله لم تند عن الشاعر دقة المراعاة لحركة القافية، فآثر أن تكون حركتها "الفتحة" المتبوعة بالإشباع حرف مد "الوصل" مما يساعده على أن يتخلص تباعا من نفثات صدره المتبقية بعد الفراغ من كل بيت، وليعبر عن عاطفته الجياشة وأحاسيسه المتدفقة فى هذا المقام الروحى ، وكأنه أحس بعد هذه الدفقة بأن هذه القافية الهادئة بجرسها الخفيف ليست كافية لتوصيل عاطفته الهائمة ، فأشبعها بالألف بعدها ، وهو حرف إطلاق ، لكى يظل دوى أحاسيسه المتدفقة بالنقاء والصفاء عالقا بأذن المتلقي على مر الزمان.

وهذه الخصائص الصوتية تتفق مع طبيعة تجربة الشاعر في هذه القصيدة، فحرف الألف حرف مد وصوت ولين ، وليس هناك عوائق تعوق هذا الصوت وهو صوت ممتد، ألا تعد هذه الخصائص الصوتية "حدسا" بما يطمع إليه الشاعر من حتمية إزالة الحواجز والعوائق التي تقف حجر عثرة في طريق هذه المناجاة الروحية التأملية التي تدعوا إلي التأمل في عظمة الخالق في خلقة ومعالم قدرته في هذا الكون.

---

(١) انظر مادة "سرح" لسان العرب لابن منظور ١٩٨٤/٣ط دار المعارف. – موسيقى الشعر بين الثبات والتطور د . صابر عبدالدايم صـ١٢٤ ط دار الأرقم بالزقازيق.

ولم يكتف الشاعر بتوظيف الموسيقى الخارجية من "وزن وقافية" فى التنفيس عن مشاعره الروحية ، ومواجده الوجدانية المفعمة بالقيم الإسلامية ، بل أضاف إليها إضافات لا بأس بها فى تنغيم الوحدات الصوتية الداخلية ، فتكرير الأصوات المتماثلة لأكثر من مرة فى البيت يعطى بعدا موسيقيا عذبا ،إلى جانب أنه يساعد فى إثراء موسيقية القصيدة كما جاء فى قوله :

الموليج الليل فى النهار وفى اللـ ∴ ـيل نهارا يفرج الظلما

وقوله:

فانتمروا الآن ما بدا لكم ∴ واعتصموا إن وجدتموا عصما

وقوله :

فمزقوا فى البلاد واعترفوا الـ ∴ ـهون وذاقوا البأساء والعدما

ومع هذه الظاهرة الصوتية حاول الشاعر أن يكشف من مشاعره الإيمانية بالقدرة الإلهية مستغلا التناسق الصوتى فى قوله :

الخافض الرافع السماء على الـ ∴ أرض ولم يبن تحتها دعما
الخالق البارىء المصور فى الـ ∴ أرحام ماء حتى يصير دما

فالتناسق الصوتى بين البيتين يكاد يكون متفقا فى الشطر الأول مع تغيير طفيف فى الشطر الثانى ، وهذا التناسق لاشك أنه أضاف للصياغة حيوية غير خافية .

أضف إلى ذلك مضاعفة الشاعر من الجمال الموسيقى والتنغيم ، وذلك بترديده لبعض الحروف التى لها جرس معين فى البيت الواحد، مما يوحى بالمعنى ويقويه ،ويخلق نوعا من موسيقية القصيدة يزيد فى تموجها تآلف الحروف والألفاظ وتجاوبهما معا، تسعد بها النفس وتستريح إليها، " فالمهارة تكون فى حسن توظيف الحرف حين يتكرر كما يوزع الموسيقى الماهر النغمات فى نوتته"(١).

(١) موسيقى الشعر د .إبراهيم أنيس صـ٣٥ ط القاهرة سنة ١٩٥٥م.

وقد كان الشاعر كذلك، فقد أبدى براعة فائقة فى حسن توزيعه للحرف حين يتكرر، ومن ذلك حسن توظيفه لحرف" الدال" كما فى قوله:

من نطفة قدها مقدرها ∴ يخلق منها الأبشار والنسما

فالكلمات " قدها " " مقدرها " تمثل عبئا ثقيلا على السمع واللسان معا بتكرار حرف الدال فيها، وهذا العبء الصوتى الذى تحمله هاتان المفردتان تجسد العبء المعنوي الذى تدل عليه من هول الموقف وصعوبته ، فهو دليل على عظمة الخالق وقدرته .

على هذا النحو أدت هذه الأصوات فى الموسيقى الداخلية أثرها الفاعل فى تجسيد المشاعر التأملية، والمواجد الروحية لدى الشاعر .

ثالثا : "المعجم الإسلامى"

جاء الإسلام فأحدث تغييراً قوياً فى المجتمع العربى ، ووجههم وجهة جديدة، إذ غرس فى نفوسهم عقيدة التوحيد التى أعادت تشكيل عقولهم ووجدانهم على مستوى الفرد والجماعة ، ومن الطبيعى أن تتردد أصداء ذلك فى الشعر،لأن هذا التحول أصبح تجربة نفسية وفكرية ووجدانية ، والدارس يلمس ذلك فى العديد من الأشعار ، فقد اختلفت القيم الفنية فى الشعر فى ظلال الإسلام ، عنها فى ظلال الجاهلية " ومن المخالفة لطبائع الأشياء أن تكون الطبقة الفنية التى كونها الشعر العربى فى هذه الحياة الجديدة مماثلة للطبقة الفنية الجاهلية تمام المماثلة ، فقد اختلفت الحياة فى ينابيعها ، وأصبح العربى يعيش معيشة جديدة ويقع تحت مؤثرات دينية ، وحضارية لم يكن يعرفها فى الجاهلية ، ولذلك تبدلت نفسيته ، وفرق بعيد بين نفسية وثنى ونفسية مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، ويستشعر السعادة فيما يؤديه من تقوى وعبادة"(١).

وعند استجلائنا للنص فى ضوء المعجم الإسلامى نلحظ الألفاظ والمعانى المشتقة من المعجم الإسلامى ، والمستمدة من القرآن الكريم.

فالقصيدة تبدأ "بالحمد لله ، والشكر له وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من الشريك ، وإثبات الوحدانية له سبحانه ، فهو واحد أحد فرد صمد، لا شريك له ولا ولد "ليس كمثله شئ وهو السميع البصير" فكانت البداية ابتهالا خفياً ، وصفاء روحياً، يدل على استيعابه لروح القرآن الكريم حيث يقول :

الحمد لله لا شريك له ∴ من لم يقلها فنفسه ظلما

(١) التطور والتجديد فى الشعر الأموى د. شوقى ضيف صـ ٢٢٠ ، دار المعارف مصر.

فمن يمعن النظر في هذا البيت يلاحظ في يسر أنه غير خارج عن دائرة المعاني القرآنية في آي الذكر الحكيم التي تحث الإنسان علي قيمة الحمد وفضيلة الشكر التي تنعكس علي حياته في الدنيا والآخرة، ففى هذا البيت أصداء قرآنية نجد مصدرها فى قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ (١).

ولفظة "الحمد" و "الشريك" من مستحدثات البيئة الإسلامية.

وقول الشاعر :

المولج الليل فى النهار وفى اللـ .:. ـيل نهاراً يفرج الظلما

نلاحظ اعتماد الشاعر علي المفردات القرآنية كأداة لإنتاج الدلالة إذ يزخم البيت ببعض الملفوظات القرآنية المشتقة من سورة الحج في قولة تعالي: "﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (٢). ليوحي من خلالها للقارئ بالتداخل مع النص القرآني وهذا ما تبدي في المفردات التالية: "المولج الليل في النهار، وفي الليل نهار".

وقوله :

الخالق البارئ المصور فى الـ .:. أرحام ماء حتى يصير دما

قد اهتدي فيه بهدي القرآن في تذكير الإنسان بخالقه وتقوية إيمانه به، وذلك عن طريق دعوته إلي تدبر ما يحيط به من آيات الكون العجيبة التي توقد جذوة الإيمان في النفس، وتزيد الإنسان يقينا بوجود الله وهيمنته علي الكون بأشيائه وأحيائه. متمثلا قوله تعالى: "هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ..

(١) الإسراء آية ١١١.
(٢) سورة الحج آية ٦١.

الآية"[1] في الشطر الأول وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [2] في الشطر الثاني.

فالمفردات أشبه بإشارات منشطة قادرة علي استدعاء الصورة الذهنية .

من هذا المنطلق شكلت الكلمة القرآنية بؤرة دلالية استقطبت الإيقاع والبناء في آن واحد.

ونمضى فى قراءة القصيدة فى ضوء المعجم الإسلامى لنكشف عن النبوغ الشعرى ، فنجد قول الشاعر :

من نطفة قدها مقدرها ∴ يخلق منها الأبشار والنسما
ثم عظاما أقامها عصب ∴ ثمت لحما كساه فالتأما
ثم كسا الريش والعقائق أب ∴ شاراً وجلداً تخاله أدما

تتجلي في هذه الأبيات فاعلية الامتصاص الشعري لبعض التراكيب القرآنية، وظفها النابغة بصياغة جديدة، مما أكسبها نوعاً من الخصوصية والتميز، فالتناص أو الاقتباس هنا لم يعتمد التضمين المباشر وإنما اعتمد علي نوع من التمثل الرمزي لبعض التراكيب والمفردات القرآنية بشكل يثير في المتلقي قدرة إيحائية خاصة، تمكنه من أن يستجلي النص الشعرى ومدي تأثره بالنص القرآني ، ومدي استقطابه لبعض اللمحات والومضات القرآنية التي تغني تجربته كلها متأثرا فى ذلك بقوله تعالي: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [3].

إن هذا الاستحضار يعمق الدلالة ليس من ناحية اللفظ فقط وإنما من ناحية المعني أيضاً، فالشاعر وصل بقوله ذلك إلي قمة التأمل

(١) سورة الحشر آية ٢٤.
(٢) سورة آل عمران آية ٦.
(٣) سورة المؤمنون آية ١٢ : ١٤.

والاستغراق الروحي ،فالذي يعرف قدرة الخالق وعظمته في خلقه يخر شاكراً صاغراً أمام هذا الخالق العظيم.

وقوله :

والصوت واللون والمعايش والـ .:. أخلاق شتى وفرق الكلما

متأثر فيه بأصداء قرآنية رصدها فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١).

ومن يتأمل يجد العلاقة واضحة بين المعاني المصوغة في الأبيات السابقة وبين المعاني القرآنية في الآيات المستلهمة،وتكشف الموازنة في هذا الموضع أن الشاعر كاد أن يعيد بعض هذه الآيات بنصها فالألفاظ هي نفسها مع بعض التصرف الذي اقتضته قواعد النظم في نسج الأبيات، وهذا يدل علي مدي تمثل المعاني الإسلامية والقرآنية في وجدان الشاعر وسيطرتها علي فكرة ووجدانه.

وتتأكد فاعلية التأثر الشعري بشكل جلي لبعض التراكيب القرآنية عبر شبكة العلاقات المتطابقة بين النصين القرآني والشعري علي مستوياته كافة ، وهذا ما يعكسه قوله :

او سبأ الحاضرين مأرب إذ .:. يبنون من دون سيله العرما

إلى آخر الأبيات.

الذي يستحضر قوله تعالي فى سورة سبأ: "لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور" ... الآيات إلى قوله تعالى : ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الروم آية ٢٢.

(٢) سورة سبأ آية ١٥ : ١٩.

ولم يكن هدف الشاعر سرد الأحداث التاريخية ،وإنما الهدف من ذلك تقوية الجانب الإيماني في نفوس المخاطبين، وحملهم علي سرعة التوبة والرجوع إلي الله،والثقة المطلقة في عفوه وغفرانه.

وفي قوله:

أطرح بالكافرين في الدرك الـ ∴ أسفل يارب أصطلي الصراما

إذا تأملت هذه النموذج وجدت العلاقة الحميمة بين معجم الشاعر اللفظي والمعنوي وبين المعجم القرآني في المواضع التي أبان فيها رب العزة سوء منقلب أهل النار في قوله تعالي: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ (١) ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ (٢) ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ (٣).

ويختم الشاعر قصيدته ببيت غاية في التوفيق ليبعث في النفس الهدوء بعد القلق، والرجاء بعد الخوف، في رحابة المشاعر المؤمنة والإيرادات الواثقة في قدرة الله وعفوه وكرمه كما في قوله :

قم واركبن بأهلك فإن ∴ الله موف للناس ما زعما

وهذا يعد صداً للبيان القرآني والتوجيه الإلهي ،صداً يتردد في كيان المؤمن ويفتح أمامه منافذ الأمل والتفاؤل مصداقا لقوله تعالي: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (٤).

---

(١) سورة النساء آية ١٤٥.
(٢) سورة النساء آية ١٤٠.
(٣) سورة الطور آية ١٣.
(٤) سورة الطور آية٢١.

وبعد:

فهذا ما منَ به الرحمن فى تجلية جوانب هذه الدراسة، والتى لم أدخر وسعا فى الوقوف على جميع أبعادها ، والإبانة لجميع خصائصها وسماتها ، ولا أدعى أننى حزت الغاية أو بلغت النهاية ، فالكمال لله وحده سبحانه، وقبل أن أضع القلم يجدر بنا أن نذكر أهم النتائج التى أسفر عنها هذا البحث :

أولا: تعد هذه القصيدة من عيون الأدب الإسلامي ،وصدى من أصدائه الحية الجديدة التى خضع فيها الشاعر لمؤثرات دينية ونفسية وثقافية لم تكن موجودة فى حياته السابقة فى الجاهلية.

ثانيا : الاتجاد بالشعر الوجهة الإسلامية من خلال التجربة الشعرية التى يدور بها الشاعر فى فلك التدبر التأمل فى الكون وخالقه.

ثالثا : اتكأ الشاعر على المعجم القرآنى لفظا ومعنى وصورة فى إثراء تجربته الشعرية ،وخياله المحلق .

رابعا : اتسمت المعانى الشعرية بالاعتدال وعدم الخروج عن الدائرة الإسلامية الحقة، وذلك لأن الشاعر كان ينهل من مرجعية دينية ألا وهى القرآن الكريم .

خامسا: اتخذ من الألفاظ أداة بارعة فى التصوير بكل ماتحمله من دلالات وإشارات وتوظيف ذلك فى التجربة الشعرية .

سادسا : أظهر الشاعر براعة فائقة فى توظيف التراث الدينى والتاريخي وبعثه بعثا فنيا فى نتاجه الشعرى من خلال الربط بين الماضى والحاضر، وتقوية الجانب الإيمانى فى نفوس المخاطبين .

سابعا : استعان الشاعر ببعض المحسنات البديعية كما جاء فى المقابلة بين ما حدث لحضارتى فارس وسبأ وما كانوا عليه قبل ذلك،

وقد جاء الاستعمال فطريا لا تكلف فيه ،بوصفه لبنة من لبنات البناء الفنى فى القصيدة .

وفى النهاية نستطيع أن نقول أن هذا الشعر الذى يكاد ينظم آيات من القرآن الكريم، وتفوح منه رائحة المعجم الإسلامى لا يمكن أن يكون قد قيل إلا فى ظلال الإسلام، فهو أنموذج حى للالتزام الحرفى بالرؤية الإسلامية ، صدر عن نفس تشبعت بآى القرآن الكريم ، ونهلت من فيض نوره ، فظهر آثر هذا المنهل العظيم فى نفس الشاعر وتجربته التى عايشناها.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل

د. محمد عبد الحكيم محمد الفقى

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الأدب وفنونه د محمد مندور دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة.
- الأسلوب أحمد الشايب ط المكتبة الفاروقية الأسكندرية سنة ١٩٣٩م.
- أشكال التناص الشعرى دراسة فى توظيف الشخصيات التراثية أحمد مجاهد ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٨م.
- الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ط دار الكتاب العربى بيروت
- الأصول الفنية للأدب عبد الحميد حسن مكتبة الأنجلو القاهرة سنة ١٩٤٩م
- الأعلام للزركلى ط دار العلم للملايين بيروت ط سادسة سنة ١٩٨٤م.
- التطور والتجديد فى الشعر الأموى د. شوقى ضيف ط دار المعارف مصر.
- تطور القصيدة الغنائية فى الشعر العربى الحديث د .حسن أحمد الكبير ط دار الفكر العربى .
- التفكير فريضة إسلامية عباس محمود العقاد ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٨م.
- الخطيئة والتكفير من البنيوية على التشريحية د عبدالله الغذامى ط النادى الأدبى الثقافى سنة ١٩٨٥م .
- ديوان النابغة الجعدى جمع وتحقيق د واضح الصمد دار صادر بيروت ط أولى سنة ١٩٩٨م.
- السمو الروحى فى الأدب الصوفى للحلوانى ط مصطفى البابى الحلبى مصر سنة ١٩٤٨م.
- سير أعلام النبلاء للذهبى ت محمد نعيم ومأمون صاغرجى الرسالة بيروت ط ثامنة .
- الشعر والشعراء لابن قتيبة الجزء الأول ت أحمد محمود شاكر ط دار المعارف.

- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى شرح محمود محمد شاكر الجزء الأول ط الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- فن الأدب من مختارات سوينهار ترجمة شفيق مقار ١٩٦٦م .
- فى الأدب الإسلامى قضاياه وفنونه د. محمد الشنطى ط دار الأندلس سنة ١٩٩٣م.
- فى ظلال القرآن سيد قطب الجزء الرابع ط دار الشروق ط العاشرة ١٩٨١م.
- فى ميزان النقد الأدبى د طه أبو كريشة ط القاهرة سنة ١٩٧٦م .
- القاموس المحيط للفيروآبادى ط مؤسسة الرسالة .
- معجم الشعراء للمرزبانى ت عبدالستار أحمد فراج تقديم د.محمود على مكى ط قصور الثقافة ٢٠٠٣م.
- من القيم الإسلامية فى الأدب العربى فى العصرين الأموى والعباسى د.صابر عبد الدايم ط جامعة الزقازيق.
- موسيقى الشعر د.إبراهيم أنيس ط القاهرة ١٩٥٥م.
- النقد الأدبى الحديث أصوله ومناهجه سيد قطب دار الشروق ط خامسة سنة١٩٨٣م .
- الوساطة للقاضى عبد العزيز الجرجانى ت محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى البجاوى ط عيسى البابى الحلبى مصر سنة ١٩٦٦م.